Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلومِ الإنسَانيّة
Vol.33/ No.6/ 2025 المجلد ٣٣/ العدد ٦/ ٢٠٢٥

أثر السياق الاجتماعي في إنتاج المعاني الخفية في الشعر العربي القديم

عبد الرحمن بن إبراهيم المهوس

أستاذ مشارك/ قسم اللغة العربية وآدابها/ كلية الآداب/ جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل/ المملكة العربية السعودية

aalmahws@iau.edu.sa

تاريخ استلام البحث: ٢٠٢٥/٢/١٦ **تاريخ قبول النشر:** ٢٠٢٥/٣/٢٣ **تاريخ نشر البحث:** ٢٩/ ٦/ ٢٠٢٥

المستخلص:

برز الاهتمام بالسياق الاجتماعي نتيجة التحول الكبير الذي أحدثته مدرسة لندن اللسانية بتوجهها الاجتماعي، بعد أن هيمنت اللسانيات الشكلية لعقود على الدرس اللساني، مكتفية بالسياق اللغوي الداخلي، ومُقصية المجتمع من موضوعها. ومع أن نظرية السياق تبلورت نظرية على يد جون فيرث، إلا أن الاهتمام بالسياق الخارجي قديم قدم الدرس اللساني، وقد أولى العرب السياق الخارجي الذي أطلقوا عليه (المقام) أهمية بالغة في جميع الحقول العلمية، وخاصة ما اتصل منها بالقرآن الكريم. وتبرز أهمية السياق الاجتماعي عند دراسة النصوص الشعرية خاصة، ولا سيما عند دراسة نصوص تنتمي إلى زمن وثقافة مختلفين. ويحفل الشعر العربي القديم بمعانٍ خفيَّة، أملتها خصوصية المجتمع العربي، وطبيعته البيئية والاجتماعية من جهة، والبعد الزمني من جهة أخرى، حيث تتحول المجتمعات في معتقداها وقيمها وعاداتها. ويأتي هذا البحث محاولا مقاربة الشعر العربي القديم بالمنهج التحليلي الوصفي، متوسلا لذلك بقرينة السياق الاجتماعي، ومركزا على المعاني الخفية التي يتعذر إنتاجها دون تسييقها اجتماعيا، بعد أن يقدم بمهاد نظري عن نظرية السياق بدءا بالتراث العربي مرورا باللسانيات النصية، وصولا إلى نظرية السياق المعاصرة، ليصل إلى أن السياق اللغوي ليس كافيا لإنتاج المعاني الخفية في نصوص الشعر العربي القديم، وأنه لا مناص من العودة إلى السياق المجتمعي بعاداته وتقاليده ومعتقداته للوصول إلى المعاني الخفية.

الكلمات الدالة: السياق الاجتماعي، فيرث، الزركشي، سياق الحال، عادات العرب.

The Role of Social Context in Producing Invisible Meanings in Old Arabic Poetry

Abdulrahman Ebrahim Almahws

Associate Professor/ Arabic Language and Literature Department College of Arts/ Imam Abdulrahman Bin Faisal University/Saudi Arabia

Abstract

Interest in the social context emerged due to the substantial transformation the London School of Linguistics brought about with its social orientation. For decades, formal linguistics had dominated linguistic studies, focusing solely on the internal linguistic context and excluding society from its scope. Although context theory was crystallised by John Firth, interest in the external context is as old as linguistic studies. The Arabs placed great importance on the external context, which they called the position, in all scientific fields, particularly those related to the Holy Quran. The importance of social context is highlighted when studying poetic texts, especially those from a different time and culture. old Arabic poetry is full of invisible meanings, shaped by the specificity of Arab society – its environmental and social nature on the one hand and the temporal dimension on the other – as societies evolve in their beliefs, values and customs. This research examines old Arabic poetry through social context, focusing on invisible meanings that cannot be fully understood without social contextualisation. It first presents a theoretical

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

foundation on context theory, starting with Arabic heritage, passing through textual linguistics and culminating in contemporary context theory.

Keywords: Social context, Firth, Al-Zarkashi, context of the situation, Arab customs

١. المقدمة:

برز مفهوم السياق الاجتماعي في العصر الحديث وخاصة مع بروز علم اللغة الاجتماعي والإنثروبولوجيا اللغوية، إذ اتجه الدرس اللساني إلى الاهتمام بالبعد الاجتماعي للغة، بعد أن أقصتها المدارس اللسانية الشكلية، التي ركزت على الشكل دون الأبعاد الأخرى.

وعلى الرغم من تشابه أنظمة اللغات بين الأمم، إلا أن طبيعة المجتمعات بمعتقداتها وعاداتها وتقاليدها وخرافاتها، تحمِّل اللغة حمولات تختلف من لغة إلى أخرى، مما يوجد اختلافات كثيرة في الأنساق، كانت انعكاسا لتميز أمة عن أخرى، ومجتمع عن آخر.

ولا شك في أن المجتمع العربي القديم اتسم بثقافة خاصة ميزته عن المجتمعات الأخرى، أسهم في ظهورها طبيعة الحياة العربية بيئيا واجتماعيا واقتصاديا وغيرها من العوامل المحيطة.

لذا فإن مقاربة النصوص الشعرية العربية بمنهج محايث يفقرها، ويعجز عن فك مغاليقها التي فرضتها خصوصية هذه المجتمعات، ويغدو السياق الاجتماعي مطلبا ملحا لإنتاج معانيها الخفية.

ولو أننا قدمنا ترجمة لهذه النصوص الشعرية بعيدا عن سياقاتها الاجتماعية لبدت كما يقول مالينوسكي– Bronislaw Malinowski: "وكأنها لغز، أو خليط من الكلمات لا معنى له"[١:ص٣٠]، فما بالك بترجمة نصوص شعرية مفعمة باللغة الإيحائية؟!

ويتناول هذا البحث بالتحليل التطبيقي الشعر العربي القديم، سعيا لإنتاج المعاني الخفية في النصوص، ويتوسل لذلك بالسياق الاجتماعي أداة إجرائية، حيث تزداد أهميته في تفسير النصوص الأدبية، وخاصة الشعرية منها، وتتزايد أهميته كلما تقدم النص في الزمن، ويعود ذلك لتطور اللغة من جهة، ولتطور المجتمعات من جهة أخرى، فتؤثر على الثقافة والعادات والمعتقدات، مما يجعل إنتاج المعاني متعذرا بالاكتفاء بالسياق اللغوي وحده.

وقد ركز هذا البحث على النصوص التي ترتبط بالمعتقدات والعادات العربية، وخاصة الغريبة منها، فقد اتسمت الثقافة العربية بخصوصية استقتها من خصوصية هذا المجتمع القبلي وما ينبني على نظامه بمختلف جوانبه.

١. ١. مشكلة البحث:

تؤكد المشكلة السؤال التالي: ما مدى نجاعة استثمار السياق الاجتماعي إجرائيا لإنتاج المعاني الشعرية الكامنة في الشعر العربي القديم؟

ويتفرع عنه: ما مفهوم السياق الاجتماعي؟ وهل اختلفت مفاهيم السياق في اللسانيات الحديثة؟ وما أوجه الشبه والاختلاف بين السياق في اللسانيات الحديثة والسياق في التراث؟

لذا يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

1. التعريف بأبرز مبادئ نظرية السياق الاجتماعي الحديثة.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

2. عرض أبرز ملامح السياق الاجتماعي في التراث العربي.
3. مقاربة الشعر العربي القديم بمنهج السياق الاجتماعي.

١. ٢. الدراسات السابقة:

حظيت نظرية السياق باهتمام كبير من الدارسين العرب، ما بين ترجمة ونقل ومقارنة بالسياق في التراث العربي، وهي دراسات كثيرة لا تكاد تحصى، وأقل منها الدراسات التي تناولت بالتطبيق نماذج من الشعر الحديث، أما الدراسات التطبيقية على الشعر العربي القديم، فنكاد نعدمها في الدرس العربي.

وجماع ما وقفنا عليه مما اقتربت جزئيا من هذا البحث دراستان، هما:

1. السياق الثقافي وأثره في إنتاج المعنى وتوجيه دلالة النص[٢:ص١٠٩]، ليوسف العايب، مجلة الأثر، الجزائر، ٢٧/ديسمبر/٢٠١٦، وقد تناول السياق الثقافي نظريا، واستشهد ببعض النماذج الشعرية، وقد أشار إلى أن غاية بحثه "تعميق وإثراء المفهوم مستأنسا ببعض الدراسات العربية والغربية النظرية منها والتطبيقية في هذا المجال، ومستعينا ببعض النماذج الشعرية العربية التي ينطبق عليها هذا النوع من الدراسات". وقد استشهد بنصين للنابغة والمتنبي، وحللهما تحليلا سياقيا نصيا.

2. السّياق وأثره في تأويلّية الخطاب الشعري– دراسة في معلقة "عمرو بن كلثوم" [٣:ص٦٥–٨٠]، لخديجة ابراهيمي، تناولت الدراسة تطبيقيا، كما ذكرت الباحثة "(سياق الموقف)، الذي وردت فيه القصيدة، بوصف النصوص القديمة نصوص سياقية".

ويأتي بحثنا هذا ناهجا منهج التطبيق على الشعر العربي القديم، بمقاربة سياقية اجتماعية، تتجاوز سياق النص وسياق الموقف، سعيا إلى إعادة قراءة النصوص الشعرية العربية القديمة بمناهج حديثة، ومحاولة إنتاج معانيها بالانفتاح على ما وراء السياق اللغوي.

١. ٣. أهمية الموضوع:

يستقي هذا الموضوع أهميته من جانبين: الأول أهمية نظرية السياق، وقيمتها النوعية بوصفها نتاج المدرسة الاجتماعية، وما تحتله بين المدارس اللسانية الأخرى، فضلا عن منهجها المنفتح، الذي يتجاوز الحداثة ومبادئها المحايثة، متماشيا مع مبادئ ما بعد الحداثة.

الثاني – أهمية الجانب التطبيقي على الشعر العربي القديم، واستنطاق النصوص القديمة بمناهج حديثة، ولا سيما أن الدراسات التطبيقية عموما، والتطبيقية بمنهج السياق خصوصا، لم تحظ بالعناية الكافية في الدرس العربي.

١. ٤. منهج البحث:

توسل البحث إلى مقاربته بالمنهج الوصفي التحليلي، والمنهج التطبيقي، انطلاقا من تحليل السياق الاجتماعي، والتوسل بالمفهوم لمقاربة الشعر العربي القديم.

١. ٥. خطة البحث

جاء البحث مقسما إلى مقدمة ومحورين وخاتمة، تناولت المقدمة الإطار النظري، ومشكلة البحث وأهدافه، وأهميته، والمنهج المتبع فيه، في حين تناول المحور الأول بالتحليل مفهوم السياق الاجتماعي انطلاقا من

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

التراث إلى المدرسة الاجتماعية، مرورا باللسانيات النصية عند سوسير وأتباعه، أما المحور الثاني فخصص للتطبيق على الشعر العربي القديم، لتأتي الخاتمة بأبرز النتائج وأهم التوصيات.

٢. مفهوم السياق من التراث إلى الحداثة:

ينقسم السياق إلى قسمين رئيسين: السياق الداخلي، ويدخل فيه سياق اللغة ويشمل الصوت والكلمة والجملة والنص والنصوص المتعالقة.

والسياق الخارجي وهو السياق خارج اللغة بجميع مستوياتها المذكورة أعلاه، مثل المتكلم والمستمع، والعلاقة بينهما، وموقف الاتصال، والزمان والمكان، والبيئة الاجتماعية والثقافية، وكل ما يحيط بالموقف الاتصالي.

ويطلق على السياق الخارجي في اللسانيات الحديثة سياق الحال أو السياق الثقافي أو السياق الاجتماعي، وهو ما كان يطلق عليه عند العرب(المقام) أو (سياق الحال).

ويختلف المقامي عن اللغوي بأنه محدد الدلالة، خلافا للمعنى المعجمي المتعدد[٤:ص٣٢٥]، يقول أولمان: "إن أكثر الأشياء تحديدا ووضوحا قد يكون له جوانب أو وجوه عدة، غير أن وجها أو جانبا واحدا فقط هو الذي يناسب متكلما بعينه أو موقفا بالذات"[٥:ص١٠٩]، فالمعنى المقامي نتاج سياق لغوي وغير لغوي يتظافران لتحديده.

وقد اهتم العرب بالسياقين في مختلف الحقول العلمية، وتباينت منجزاتهم بتباين التخصصات والغايات، سنتناول أبرزها في المبحث التالي.

١. ١. السياق عند العرب

شكّل السياق عنصرا رئيسا لدى جميع المدارس اللغوية قديمها وحديثها، تناوله اليونان، وفصّل فيه العرب، ونظّرت له المدارس اللسانية الحديثة، مع اختلاف في مفهومه وحدوده بين مدرسة وأخرى.

وقد أولاه العرب أهمية كبرى بسبب ارتباطه بالقرآن الكريم، حيث كان من القرائن المهمة عند المفسرين والأصوليين والنحاة والبلاغيين، فتنوعت إسهاماتهم بين السياق النصي والسياق الخارجي.

وليس هذا مقام استعراض الجهود السياقية في هذه الحقول، وهذا ما لا يزعم البحث قدرته عليه، وإنما الغاية–هنا– الوقوف عند مفهوم السياق عندهم، دون التوسع فيما لا يخدم هذا البحث.

يقسم العرب السياق إلى قسمين، سياق المقال وسياق الحال أو المقام، وهذا يتوافق مع التقسيم الحديث الذي قسم السياق إلى لغوي وغير لغوي، أو داخلي وخارجي[٦:ص٥٩].

وإذا كان لكل مجتمع نصوص تعكس خصوصيته، وتنقل ثقافته، فإن العكس صحيح كذلك، فلكل نصوص ثقافة مجتمع تفسرها، وما دمنا نبحث عن المعنى، فإن سياق المجتمع الذي أنتج فيه النص، بما فيه من عادات وتقاليد ومعتقدات، سيسعفنا في إنتاج المعنى بالشكل الصحيح.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وكما أسهمت نظريات عدة في بناء نظرية السياق في العصر الحديث، كاللسانيات الشكلية والإثنروبولوجيا، واللسانية الاجتماعية، فإن الأمر نفسه في التراث العربي، إذ أسهمت حقول مختلفة في المنجز السياقي التراثي، كالبلاغة والنحو والتفسير والأصول، بدرجات متفاوتة.

أولى علماء المعاني سياق المقال عناية كبيرة، ويأتي الجاحظ في مقدمتهم، فقد تحدث عن سياق الموقف وإن لم يسمه، بل أورده في نقلة لوصية الخطيب إبراهيم بن جبلة لتلاميذه حين قال: "كن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت"[٧:ص١٣٦]، فهو هنا في حدود سياق الموقف، وليس خافيا أن هذه الصفات موجهة لإنتاج النصوص لا تلقيها.

وينفي عبد القاهر الجرجاني فصاحة الكلمة منفردة، وإنما تكون بسياقها اللغوي، مرتبطة بما سبقها وما تلاها، يقول: "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللّفظة لمعنى التي تليها"[٨: ص٤٦]، ويؤكد ذلك في أكثر من موضع، وأنه لا يوجب "الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنّا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلَّقا معناها بمعنى ما يليها"[٨:ص٤٠٢].

وهذا في رأيه ما يجعل الكلمة الواحدة "تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"[٨:ص٤٦]، وكما هو واضح يندرج هذا تحت السياق اللغوي الداخلي، ولا يتجاوزه إلى سياق الحال، بل لا يتجاوز سياق الخملة كما هو عند سوسير، وإن وجدنا بعض الأمثلة التي تتجاوز السياق الداخلي، فهي تندرج ضمن سياق الموقف، مثل قوله: "وإذا رأيت شخصا من بعيد فقلت: «ما هو إلّا زيد»، لم تقله إلّا وصاحبك يتوّهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجدّ في الإنكار أن يكون «زيدا»[٨:ص٣٣٢].

ويبدو أن علماء الأصول والتفسير كانوا أكثر توسعا في تناول السياق الخارجي من غيرهم، ولعل موضوع دراستهم، وهو القرآن الكريم، وراء ذلك، فهم يتناولون مصنفا كاملا، ومن منظور التلقي؛ لذا وصلوا أبعد من غيرهم في دلالة السياق الداخلي والخارجي.

يُقعِّد ابن القيم [٩:ص٤٩٧]، للسياق في قوله: "ومن تدبّر مصادر الشرع وموارده تبيَّن له أن الشارع ألغى الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها معانيها، بل جرت على غير قصد منه كالنائم والناسي والسكران والجاهل والمكره والمخطئ من شدة الفرح أو الغضب أو المرض ونحوهم" وعليه فإن المعتمد في ذلك هو سياق الحال؛ لذا "لم يُكفَّر من قال من شدة فرحه براحلته بعد يأسه منها: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك"، وإذا كان ذلك كذلك، فإنه من باب أولى في "الألفاظ التي يُقطع بأن مرادَ قائلِها خلافها"[٩:ص٤٩٧]، ليدل مراد القارئ بوصفه جزءا من السياق الخارجي في مسألة التأويل.

ويحتل سياق الحال أهمية خاصة عند المفسرين، حيث استعانوا به للكشف عن معاني الآيات القرآنية، وخاصة ما لا تكون معانيه ظاهرة في اللفظ، حيث يلجؤون إلى القرائن، للوصول إلى فهم كتاب الله، وهو غاية التفسير كما يقول الزركشي [١٠:ص١٣] في تعريفه للتفسير: "علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات"، فالغاية في المقام الأول هي المعنى.

ويعيد الزركشي الحاجة إلى التفسير لأسباب ثلاثة [١٠:ص١٤]:

أحدها: كمال فضيلة المصنف، فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز، فربما عسر فهم مراده، فقصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدل على المراد من شرح غيره له.

ثانيها: قد يكون حذف بعض مقدمات الأقيسة أو أغفل فيها شروطا، اعتمادا على وضوحها، أو لأنها من علم آخر، فيحتاج الشارح لبيان المحذوف ومراتبه.

ثالثها: احتمال اللفظ لمعان ثلاثة، كما في المجاز والاشتراك ودلالة الالتزام، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه.

ويصل بهذا إلى أن مهمَّة الشارح توضيح المعاني المرادة، فإن كانت تعود إلى كمال فضيلة المصنف، فإن شرحه يكون للأهداف التالية [١٠:ص١٥]:

1. من قبيل بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها.
2. من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض لبلاغته ولطف معانيه.

وهنا تأتي الحاجة إلى "قانون عام يعول في تفسيره عليه ويرجع في تفسيره إليه من معرفة مفردات ألفاظه ومركباتها وسياقه وظاهره وباطنه" [١٠:ص١٥]، فالأمر ليس متروكا للجميع، بل هو منضبط بأدوات وتقنيات يلزم المفسر التمكن منها، والقدرة على تفسير النص بواسطتها.

ولا بد من معرفة عادات العرب القولية والفعلية للوصول إلى مراد الشارع، فلغة العرب ليست كافية دائما للتفسير؛ لذا يلزم العودة إلى عاداتهم حالة التنزيل، تجنبا للوقوع في الغلط.

يقول الشاطبي: "ومن ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل وإن لم يكن ثم سبب خاص لا بد لمن أراد الخوض في علم القرآن منه وإلا وقع في الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة" [١١:ص١٥٤]، ليشمل السياق اللغوي وغير اللغوي.

ومن لطيف ما التفت إليه الزركشي تقسيمه النص إلى نوعين نص الكمال، وهو القرآن، ونصوص النقص، وهي النصوص البشرية، وتعليله الحاجة إلى السياق بأنه في غير القرآن، قد "يقع في التصانيف ما لا يخلو منه بشر من السهو والغلط وتكرار الشيء وحذف المهم وغير ذلك فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك"[١٠:ص١٥]، حيث يضع قوانين عامة للوصول إلى المعاني، سواء لكمال فضيلة المصنف، أو لقصور المصنفات البشرية.

وفي معرض حديثه عن الاختلاف في التفسير باختلاف طرق الاستدلال ذكر ابن تيمية فريقين[١٢:ص٣٣]:

الأول قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل *ألفاظ القرآن* عليها.

والثاني: قوم فسروا القرآن بما يسوغ من لغة العرب، "من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به".

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وينتقد هذا الفريق؛ لأنهم "راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام"، فالسياق اللفظي محدود الأثر وليس كافيا للتفسير، أما وظيفة السياق كما يراها، فإنها الإرشاد إلى "تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة"، ثم يصفه بأنه "من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته"[١٣:ص١٣١٤].

ومن أبرز أدوات السياق الخارجي عند المفسرين، معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، حيث عدها الزركشي شرطا للمفسر، فبعد أن أشار إلى أدوات السياق النصي التي يستمد بها المعنى من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، عقب بحاجة المفسر "لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"، وهذه وما يرتبط بها كلها تندرج ضمن السياق الخارجي.

ويختص ابن تيمية أسباب النزول بمكانة خاصة في السياق الخارجي، مؤكدا أن "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء: أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف، رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها" [١٢:ص١٦].

ويشاطر الواحدي ابن تيمية الرؤية لأسباب النزول، ويضيف أنه لا بد لتفسير الآية من معرفة قصتها وبيان نزولها؛ "لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"، أما القول في أسباب النزول، فلا يحل "إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب" [١٤:ص١٠]، فأسباب النزول –لديه– تشمل جو النص الذي أنزل فيه وملابساته، والملابسات أوسع من أسباب النزول؛ لأنها أسباب محيطة، نجدها في عادات العرب وثقافتهم.

وخلاصة ما ذكر أعلاه نستطيع أن نحدد عناصر سياق المقام عند العرب بالتالي:

1. أسباب النزول.
2. ملابسات النزول.
3. الناسخ والمنسوخ.
4. معرفة الزمان والمكان (المكي والمدني) بوصفهما سياق الحال.
5. المتكلم بالقرآن
6. المنزل عليه القرآن
7. المخاطب به.

وهذا لا يبعد عن عناصر السياق في اللسانيات الحديثة، وخاصة عند فيرث–*John* Rupert *Firth* الذي أسس نظريته على مبدأ أن دراسة المعنى هي غاية اللسانيات.

٢. ٢. السياق النصي في اللسانيات الحديثة:

السياق يشمل اللغة والكلام وفق سوسير، الذي يؤكد على عدم وجود حد فاصل بين السياقين، وأنهما مشتركان إلى درجة يصعب تحديد نسبة كل واحد منهما [١٥:ص١٢٥]، لكنه استبعد الكلام بحكم المبادئ النظرية لديه، وقصر السياق على اللغة، امتدادا لقصر موضوع دراسته برمتها على اللغة.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وقد سار أتباع سوسير من اللسانيين الشكليين على نهجه، وان بدا بعض التحولات التي امتدت خارج الجملة إلى النص، وإن ظلت في حدود السياق اللغوي.

أما الشكلانيون فقد واجهوا مشكلة في نموذج سوسير اللساني، وأدركوا عدم نجاعته لمشروعهم، فرومان ياكبسون–Jakobson Roman– وفق ليونارد جاكسون "[١٦:ص٢٨]–*Leonard Jackson* وجد أن هناك "نقاط ضعفٍ جوهرية في نموذج اللغة السوسيري" في مقاربة الكلام؛ لذا اختلف السياق لديه ولدى الشكلانيين عموما بحكم اختلاف موضوع دراستهم، فما دامت الشعرية غايتهم، فإن الكلام موضوع دراستهم لا اللغة.

لذا صاغ ياكبسون"[١٧:ص٣٥٣] نموذجه العاملي، وفق مخطط يشمل الموقف الاتصالي كاملا، فللرسالة بدءا ستة عوامل، ولكل عامل وظيفة مختلفة، ولكل اتصال رسالة ذات شفرة، يدركها المرسل والمتلقي، وتنقلها وسيلة عبر سياق.

ويأتي في مقدمة العوامل عنده (عامل السياق)، الذي بُنيت به الرسالة، وهو عامل رئيس لفهمها [١٧:ص ٣٥٣]، يرتبط بالوظيفة المرجعية التي يراها ياكبسون قاعدة الاتصال، وهي التي تحدد العلاقة بين الرسالة والموضوع الذي تحيل عليه، ويؤكد أن على اللساني أن يأخذها بعين الاعتبار"[١٧:ص٣٥٣]، فهو يراها الوظيفة المهيمنة على الوظائف الأخرى، على الرغم من شمولها للغوية وغير اللغوية.

لذا انزاح مفهوم السياق عما كان عليه في نموذج سوسير، ليشمل عناصر غير لغوية، كما يقارب الكلام عوضا عن اللغة، وهذا كان له أثر مهم في تطور مفهوم السياق فيما بعد بالامتداد لما وراء النص.

وحسم البنيويون السياق بالداخلي من دون الخارجي، بما يتوافق مع المبادئ البنيوية المرتكزة على الأفكار الرئيسة للبنيوية، التي حددها جان بياجيه *Jean Piaget* "[١٨:ص٨،١٩:ص٨] في كتابه (البنيوية)، وهي: الكلية، والتحول، والانتظام الذاتي.

والانتظام الذاتي يعني استغناء البنية عما هو خارج عنها، لذا فإن السياق الخارجي بما فيه الاجتماعي، خارج اهتمام البنيوية، مكتفية بالسياق الداخلي، وهذا ينسجم مع مبادئ سوسير التي اعتمدتها البنيوية، وخاصة في مشاريعها الأولى.

غير أن هذه المبادئ التي وقفت عائقا في مقاربة النصوص الأدبية خاصة، لم تصمد طويلا، لتبدأ ردود الفعل الرافضة للمحايثة، بحجة إفقارها للنصوص وجمودها ومحدودية إنتاجها، ولا سيما فيما يتصل بإنتاج المعنى في النصوص الادبية.

ولعل بدايات التحرر من هذا التسييج الذي وضعته البنيوية، كانت على أيدي البنيويين أنفسهم، فقد كان لجماعة تلْ كلْ–Tel Quell دور في هذا التحول، إذ بدأ بالتوسع ليشمل السياق النصي، ثم السياق النصوصي فيما بعد في التناصية.

وتأتي التناصية– بعد أن مهَّدت لها الشكلية – موسِّعة السياق ليشمل النصوص الأخرى، فعلى مفاهيم باختين *Mikhail Bakhtine* بنَت جوليا كريستيفا– *Julia Kristeva*، وهي من أعضاء جماعة تل كل، مشروعها الذي أطلقت عليه (التناص) "[٢٠:ص٩٧]، متجاوزة الشكل، وأعادت صياغته بأنه "عبارة عن تبادل النصوص: في فضاء نص معين، تتعالق النصوص باستدعاء عبارات محددة وتحييد أخرى" [٢١:ص٣٦]، ليتم

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

بناء النص، لأن النص عبارة عن انتاج، وما علاقته باللغة التي ينتمي إليها إلا "علاقة إعادة توزيع"[٢١:ص٣٦]، أي هدم وإعادة بناء.

بيد أنه ينبغي الإشارة إلى أن التناص عند كريستيفا مفهوم إنتاجي، لا علاقة له بالتلقي، وهذا ما دفع بعض التناصيين إلى توسيعه ليشمل التلقي، وقد رأى يوري لوتمان– yuri lotman، أن إنتاج معاني النص تستدعي على مستوى التلقي النصوص المتعالقة معه، فكما استدعاها إنتاجا فإنه يستدعيها تلقيا.

هكذا تطور السياق من الجملة، مرورا بالنص، وصولا إلى النصوص، وتحول من دراسة اللغة إلى دراسة الكلام، وتوسع من الإنتاج إلى التلقي، كل هذا مهد للانتقال من السياق الشكلي إلى السياق الاجتماعي، كما ظهر عند مدرسة لندن، ومن نهج نهجها.

٢. ٣. السياق الاجتماعي:

كانت البداية النظرية للسياق الاجتماعي مع اللساني الإنجليزي جون فيرث، رائد المدرسة اللسانية الإنجليزية، فإليه يرجع الفضل في تحويل اهتمام الدرس اللساني إلى السياق الخارجي، بعد أن كان أسير الجملة والنص في المدارس اللسانية الأخرى.

وقد صاغ فيرث نظريته متأثرا بمنجزين لعالمين، جعلا البعد الاجتماعي عنصرا رئيسا في إنتاج المعنى، الأول هو لعالم الإنثروبولوجي برونسلا مالينوفسكي الذي يرى أن "اللغة في جوهرها متأصلة في حقيقة الثقافة ونظم الحياة والعادات عند كل جماعة، ولا يمكن إيضاح اللغة إلا بالرجوع الدائم إلى المحيط الأوسع، وهو الظروف التي يتم فيها النطق" [٢٢:ص٤٨].

وكان لطروحاته كبير الأثر في فيرث للالتفات إلى البعد الاجتماعي للغة، أكد هذا التأثر كثير من الدارسين منهم جيفري سامسون–Jeffrey Samson وفرانك بالمر–*Frank Palmer*، واعترف فيرث نفسه بأنه مدين لمالينوفسكي ببناء نظريته [٦:ص٧٦–٧٧،٢٣:ص٢٣٩] ، وإن كان يأخذ عليها قصورها تجاه اللغة[٦: ص٧٦–٧٧]، وهذا ناجم عن منطلق مالينوفسكي الإنثروبولوجي، خلافا لمنطلق فيرث اللساني؛ لذا أعاد صياغة النظرية من منطلق لساني.

أما العالم الثاني فهو الأمريكي إدوارد سابير– Edward Sapir، وخاصة في كتابه (اللغة) الذي يؤكد فيه "أن دراسة اللغة في معزل عن السياق الثقافي والحضاري والإنثروبولوجي دراسة عقيمة، ولا تؤدي إلى شيء، لا سيما فيما يتعلق بالمستوى الدلالي" [٢٤:ص٢٨]، وهنا يلتقي فيرث مع سابير في المنطلق والتوجه.

ومع أن مالينوفسكي ينطلق من أرضية إنثروبولوجية، فإن أثره في فيرث كان أكثر وضوحا من أثر سابير الذي يشاركه في المرجعية اللغوية.

وإذا كان فيرث قد انفتح على السياق الاجتماعي، فإنه لم يُقص السياق الداخلي، بل بنى عليه، ليأتي السياق بناء مترابطا في سلسلة منضبطة، تبدأ بالسياق الصوتي، ونمتد لتشمل السياق المعجمي والصرفي والتركيبي والموقفي والثقافي [٢٤:ص٢٨]، وينجم عن كل عنصر وظيفة، تجتمع هذه الوظائف كلها في السياق الأعم وهو السياق الثقافي.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ومنذ البدء يؤكد فيرث أن اللغة اجتماعية، وليست مجرد "إشارات اصطلاحية" [٢٥:ص٢٨٢]، وهنا يختلف مع سوسير من جانب الاجتماعية، لكنه يتفق معه بالمرجع اللساني، ففيرث على هذا موضوعه الكلام وليس اللغة كما حدد سوسير.

وخلافا لهيمنة النموذج اللساني الشكلي، يحدد فيرث موضوعه الرئيس بالمعنى، لكنه يظل معتمدا مبدأ الوظائف اللغوية، وموسعا للوظائف لتشمل المحيط، مضيفا إليها مضمون المحيط [٢٥:ص٢٨٣]، وبذا يغدو منهجه تطورا غير منبت من اللسانيات الشكلية.

وعلى هذا أسس فيرث نظريته، انطلاقا من أن دراسة المعنى هي غاية اللسانيات، واقترح تنظيما تخطيطيا ينطبق على أحداث اللغة كالتالي [٦:ص٧٧]:

أ- الملامح الوثيقة بالمشتركين: الأشخاص، الخصائص الذاتية المميزة:

١. الحدث الكلامي.

٢.الحدث غير الكلامي.

ب- الأشياء ذات الصلة بالحديث.

جـــ - تأثيرات الحدث الكلامي.

هذه التصنيفات تجمع سياقات الحال، وتصنفها من منظور لغوي وبأدوات لغوية، وهنا يختلف عن مالينوفسكي، الذي ينطلق من أرضية إنثروبولوجية كما مر.

٣. الجانب التطبيقي

حينما نظم الشاعر العربي أبياته، كان يدرك أن معاني قصيدته مفهومة عند المتلقي، بحكم أن هذا الأخير ابن ذلك المجتمع بمعتقداته وتقاليده وعاداته، فهو يمارس هذه العادات، ولا يجد صعوبة في تفسيرها، إذا ما وجدها في نص شعري أو غيره.

لكن المتلقي في العصر الحاضر يحتاج إلى أدوات للوصول إلى هذه المعاني، ولعل السياق الاجتماعي يمثل قرينة رئيسة في هذا المجال، ولتحقيق ذلك سنتناول بالتحليل نماذج من الشعر القديم مستدعين عادات مجتمعها لإنتاج معانيها الخفية.

والحق أن المجتمع العربي القديم يتميز بثقافة خاصة، تختلف عن المجتمعات الأخرى، بحكم طبيعة الحياة الصحراوية، والنُّظم التي تحكم ذلك المجتمع، والعلاقات الاجتماعية، والقبلية، وما يرتبط بها من حرب وسلم، ومرض وشفاء، وزواج وطلاق، وقتل وثأر، وكل ما يتصل بنواحي الحياة.

ومع أننا درجنا على التعرف على هذه المجتمعات بما حفظ لنا الشعر العربي عنها، فإننا في المقابل سنسعى إلى التعرف على الشعر وإنتاج معانيه الخفية بهذه العادات، التي سنرى أن فك مغاليق هذه النصوص سيكون متعذرا بدون التوسل بهذا البعد الاجتماعي.

وسنتناول في هذا المحور بالتحليل، نماذج من الشعر العربي بمقاربة سياقية اجتماعية، تأخذ بالحسبان ثقافة المجتمع الذي أنتج هذه النصوص، وتستثمرها في الوصول إلى معانيها.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

٣. ١. ١. القيم الاجتماعية:

تختلف القيم من مجتمع إلى مجتمع باختلاف الزمان والمكان، فما يعد قيمة في مجتمع ما، ربما لا يكتسب هذه القيمة في مجتمعات أخرى، أو بأزمنة أخرى، ولنا في التحول القيمي بين العصر الجاهلي والإسلامي، وبين التحول القيمي في مجتمع الصعاليك خير مثال.

وهذه القيم المختلفة حينا والمتناقضة أحيانا، تعد عنصرا ضروريا لتحليل كثير من النصوص الشعرية، وعدم استدعائها عند قراءة النصوص يقود– في كثير من الأحيان– إلى إنتاج معان مختلفة، وربما مضللة بعيدة عن التأويل الصحيح.

٣. ١. ١. ١. القيم الجاهلية

ولنأخذ النصرة مثالا على التغير القيمي، يقول الشاعر – على خلاف في نسبة الأبيات – مقارنا بين قومه بني العنبر وبني مازن:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحـــــدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاننا [٢٦:ص٩٧]

يصف الشاعر القوم بأنهم يحبون الشر، ويطيرون إليه أفرادا وجماعات، وإذا دعاهم الداعي إلى النصرة هبُّوا نصرة للقبيلة، من دون تثبت من صدق كلامه، سواء كان على حق أو على باطل.

ثم يعرج على وصف قومه بقوله:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيتـــــــه ســـــواهم من جميع الناس إنسانا

يصف في هذه الأبيات قومه بأنهم لا يدخلون في شيء من الشر وإن هان، يغفرون لمن يظلمهم، ويحسنون إلى من يسيء إليهم، ويزيد في وصفهم فيقول: كأن الله تعالى خصهم بخشيته من دون سواهم، فلا يؤذون أحداً.

إن الوقوف عند المعاني المباشرة، بعيدا عن السياق الاجتماعي لمنتج هذه القصيدة، ينتج معاني غير مقصودة، وغرضا خلاف المراد، فقد تدرج ضمن الفخر بقبيلته وهجاء الأخرى، حيث يصف الشاعر بني مازن وصفا قيميا جاهليا، وقد يبدو الغرض الظاهر مختلفا، فبعيدا عن القيم الجاهلية وسياقها الاجتماعي، ربما أدرجت هذه الأبيات تحت غرض الهجاء، في حين تدرج الأبيات التي وصف بها قومه تحت الفخر.

لكن الواقع أن هذه المعاني المباشرة تأتي خلاف ما يعنيه الشاعر، وفق القيم التي ينتمي إليها، وإن انسجمت مع قيم أخرى كالقيم الإسلامية مثلا، فالمتمعن لهذه المعاني عند تسييق وحداتها يجدها مختلفة اختلافا جذريا، بل تنقلب رأسا على عقب، فيغدو الذم مدحا والمدح ذما، ففي الأبيات الأولى تبرز النصرة وفق القيم الجاهلية، دون تلكؤ يراه العربي صفة الجبناء، وتأتي الأبيات الأخرى في قومه ذما لا مدحا، "فيصفهم بالجبن وبهوانهم، لأن العرب تتمدح بالظلم، ويرون ذلك منقبة وفخرا"[٢٧:ص٧٨]، لذا فإن السياق هنا هو العنصر الأبرز في تحليل النص وإنتاج معانيه.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ويؤكد هذا سبب القصيدة، فقد روي عن أبي عبيدة قوله: "أغار ناسٌ من بني شيبان على رجل من بني العنبر يقال له: قريط بن أنيف فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم ينجدوه فأتى مازن تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الأبيات"[٢٨:ص٤٤١]، ويعقب المرزوقي معتذرا للشاعر: "مازن: هنا هو ابن مالك بن عمرو بن تميم أخي العنبر بن عمرو بن تميم. وإذا كان كذلك فمدح هذا الشاعر لهم يجري مجرى الافتخار بهم "[٢٦:ص٢٠]، في محاولة فيما يبدو لتنسجم الأبيات مع العرف القبلي بتجريم الإساءة للقبيلة.

وعلى الرغم من اعتذار المرزوقي للشاعر بأنه قصد بعث قومه على الانتقام له من أعدائه، لا إلى ذمهم، وأن وبال ذمهم يعود إليه، إلا أن هذا يؤكد المعنى المقصود، بغض النظر عن الغاية من ورائه.

ويورد ابن عبد ربه الأبيات:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لـــم يخلق لخشيتـــــه ســـواهم من جميع الناس إنسانا

ثم يعلق: "ولم يرد بهذا أنه وصفهم بالحلم ولا بالخشية لله؛ وإنما أراد به الذلّ والعجز" [٢٩:ص٣٣٢]، وهذا كله مرتبط بسياق الأبيات الخارجي، حيث تسود هذه القيم في المجتمع.

فماذا لو رمنا تحليل هذه الأبيات وفق القيم الإسلامية؟

نجد المعنى مختلفا حتما، بل منقلبا رأسا على عقب، نتيجة اختلاف القيم، التي ترى نصرة الأخ ظالما بمنعه عن ظلمه، لا بنصرته على الظلم، قال صلى الله عليه وسلم: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما قال تأخذ فوق يدي) [٣٠:ص٢٤٤٤]، ونجد التثبت صفة حميدة، لا صفة جبن كما كانت؛ لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات، آية، ٦. فالاستجابة من دون تثبت مخالفة للقيم الإسلامية، وإن كانت من القيم الجاهلية المحمودة.

هكذا يصبح للقيم أثر كبير في إنتاج المعنى؛ لذا يغدو ضروريا أن نستدعي السياق الذي أُنتِج فيه النص؛ لنتمكن من تأويله التأويل الصحيح.

٣. ١. ٢. القيم عند الصعاليك:

حين ننتقل إلى مجتمع مختلف، وإن كان ضمن المجتمع الكبير، فإننا نواجه اختلافا في القيم، فرضته عوامل عدة، ستنعكس بلا ريب على الشعر وتأويله، وخير مثال على ذلك مجتمع الصعاليك، فعلى الرغم من وحدة الزمان والمكان، إلا أن القيم التي استحدثوها اختلفت شيئا ما، وهذا انعكس على شعرهم، وأصبح الولوج إليه مشروطا بمعرفة هذه القيم المختلفة.

من أبرز قيم مجتمع الصعاليك التي يرونها من العدالة الاجتماعية، سلب الأغنياء ومنح الفقراء، وهي قيمة رئيسة في هذا التجمع المارق، يفتخرون بها، ويرفعونها شعارا لهم ضد ظلم القبيلة وجبروتها، ويرتبط به سياستهم في توزيع الغنائم، وتضامنهم الاقتصادي فيما بينهم، أو تجاه المحتاجين من المجتمع.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

انعكست هذه القيم على شعرهم؛ لذا بدا شعرهم مختلفا عن شعر محيطهم الأكبر، فوجدنا شعرا غير الشعر السائد من حيث البناء والأغراض والموضوعات والصور، وقد أشار يوسف خليف [٣١:ص٢٥٩] إليها وأعادها إلى "طبيعة حياتهم نفسها تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش"، ورأى أن هذه الطبيعة انعكست على شعرهم فغلب عليها "أن تأتي -في مجموعها- مقطوعات قصيرة"، تتوافق مع غاراتهم السريعة، محددة الغايات.

وما يهمنا في هذا المقام، هو ما يتصل بإنتاج المعنى، فحينما يقول تأبط شرا:

ولست أبيت الدهر إلا على فتى أسلبه أو أذعر السرب أجمعا

فإن تأويل هذا البيت، استنادا إلى قيم العرب غير الصعاليك، ستكون عائقا للوصول إلى التأويل المناسب، لكن استدعاء قيم الصعاليك التي ترى أن السلب والنهب من الصفات الحميدة للصعلوك، وأن "الغزو أدرّ للّقاح وأحدّ للسلاح" [٣٢:ص٣٥١]، فإننا نصل إلى المعنى المنسجم مع السياق النصي.

وإذا كان الوفاء للقبيلة من القيم العربية الرئيسة، بل هي "قوام المجتمع الجاهلي"[٣١:ص١١٤]، فإن الصعاليك استبدلوا الصحب بالقبيلة، وآثروهم على قبائلهم، وهذا رابط مختلف عن القبيلة، وخارج عليها وعلى قيمها، بل إنه في مقدمة القيم التي لا تناقش.

ووصل الأمر ببعضهم إلى غزو قبيلته مثل قيس بن الحدادية، فبعد أن خلعته قبيلته جمع "شذاذا من العرب، وفتاكا من قومه، وأغار عليهم بهم"[٣١:ص١١٥]، يقول يوسف خليف: "فنحن هنا أمام ظاهرة شاذة في المجتمع الجاهلي، يغير فيها بعض القبيلة على بعضها" [٣١:ص١١٥].

ولم يكتف هؤلاء الصعاليك بتقديم الصحب على القبيلة، بل إنهم آثروا الوحوش على القبيلة، فهذا عروة يقول:

ولي دونكم أهلون سيد عملَّس وأرقط زهلـــول وعرفاء جيال
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

ويقول تأبط شرا:

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفْنه ويصبح لا يحمي لها الدهرَ مرتعا [٣٣:ص١٠٧]

فقد ألف الوحوش وألفته، وأمنها وأمنته، وهذا لا يتوفر له عند غيرها ولو كانت قبيلته.

لقد تراجعت مكانة القبيلة في هذا المجتمع المارق، لتحل مكانها قيم جديدة، لها الأولية، في حين كانت خيانة عظمى في قيم القبيلة الأصل، وبذا يمكن تأويل كثير من العاني الواردة في أشعار هؤلاء.

تأتي هذه القيم في سياق اجتماعي مختلف عن سياق المجتمع القبلي، ومتنصل من أبرز قيمه؛ لذا يغدو من الصعوبة بمكان، قراءة شعر الصعاليك وتأويله، دون أخذ هذا الانحراف القيمي بالحسبان، فهو المعين على فهم النصوص وتفسيرها التفسير الصحيح.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

٣. ٢. العادات:

عُرف العرب بعادات كثيرة، منها ما يتصل بالقتال والثأر، ومنها ما يتصل بالكرم والضيافة، ومنها ما يتصل بالممارسات الخرافية، ومنها ما يتصل بالعلاج والحب والزوج وغيرها، وهذه العادات تمثل قرائن مهمة للوصول إلى دالاتها، ومن دونها يغدو الوصول إلى معانيها، صعبا، وربما محالا في بعض النصوص.

٣. ٢. ١. عادات في الثأر:

للعرب عادات في الثأر عجيبة، نجد انعكاساتها على الشعر الذي يصعب تفسيره، أو يفسر عكس المراد في حال الاكتفاء بالسياق النصي؛ لذا يصبح لزاما تحليلها ضمن سياقها، ومن النماذج التي جاءت على غير ظاهرها، بسبب عادات عربية خارج السياق اللغوي.

من النماذج البينة في هذا قول الشاعر:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نســـوتنا بوجه نهار

يجد النســـاء حواسرا يندبنه يلطمن حرّ الوجه بالأسحار [٣٤:ص١٢٢]

يخاطب الشاعر الشامتين الفرحين بمقتل مالك، منكراً عليهم فرحتهم التي جاءت في غير محلها، ليطالب بالمجيء إلى قبيلته ومشاهدة نساء القبيلة وهن حاسرات عن رؤوسهن، يندبن مالكا، ويلطمن وجوههن في الاسحار، ويندبنه في ذلك الوقت؛ وإنما خصّ السحر "لأنه وقت الغارة. يقول: فهنّ يذكرنه حينئذ؛ لأنه كان من الأوقات التي ينهض فيها للحرب والغارات" [٣٢:ص١٢٩].

يوقع ظاهر هذه الأبيات في حيرة، عند الاكتفاء بالمعاني المعجمية، إذ تبدو الأبيات عند ذلك هجاء للقبيلة لا مدحا وفخرا، فالشاعر يخبر أن النساء يبكين مالكا المقتول، ويلطمن وجوههن بالأسحار جزعا عليه، فأين الفخر في هذا الوصف؟! هل تثأر القبيلة لمقتل فرسانها بنواح نسائها على المقتول؟!

لفك مغاليق هذا النص، وبناء معانيه بصورة صحيحة، لا بد من استدعاء عادة العرب في الثأر، وهي أن النساء "لا يبكين المقتول منهم حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ به بكينه حينئذ" [٣٥:ص٤٦١، ٣٣:ص١٢٢]، وبذا يغدو البكاء واللطم علامة نصر وشجاعة، لا هزيمة وجبن، فيستقيم المعنى، وتنسجم الأبيات مع مراد الشاعر، الذي يفخر بأن قومه أخذوا بثأر مالك، ودليله هذا البكاء واللطم.

هذه من عادات العرب في الثأر عند العرب، إلى جانب كثير من العادات والمعتقدات الأخرى، مثل اعتقادهم أن المقتول إذا قبلت ديته، أو أهدر دمه بقي قبره مظلما، وإن ثأروا له أضاء قبره، وعلى هذا يمكن تفسير قول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب بعد أن قبل دية أخيه [٢٨:ص٣٥٦-٣٥٧]:

أرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه أن لا تخلوا لهم دمي

ولا تأخذوا منهم إفالا وأبكرا وأترك في بيتٍ بصعـــــدة مظلم

فكبشة تحذر أخاها على لسان أخيها من قبول الدية، وتحرض على أخذ ثأره، حتى لا يظلم قبره.

وفي السياق نفسه، في معرض القتل خاصة، يشيع عند العرب الحديث عن الهامة، قال إبراهيم بن هرمة[٣٦:ص٤٢٣]:

تفانوا، ولم يبقوا، وكل قبيلة سريع إلى ورد الفناء كرامها

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وكيف وقد صاروا عظاماً وأقبراً يصيح صداها بالعشي وهامها؟!

وقال ذو الأصبع:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني [٣٥:ص٤٦١]

والهامة هنا طائر، وهو البومة، وهنا يظهر للوهلة الأولى سؤال عن علاقة البومة بضرب الرجل؟ ولماذا تطلب السقيا؟ إننا بإزاء دلالات غامضة مغلقة لن تسعفنا بها السياقات الداخلية، ولا سبيل إلى تفسير هذا البيت إلا باستدعاء معنى الهامة ضمن سياقها الاجتماعي العربي، حيث يزعم العرب أنه إذا لم يؤخذ بثأر المقتول، فإنه "يخرج من رأسه طائر كالبومة وهي الهامة والذكر: الصدى فيصيح على قبره. اسقوني اسقوني فإن قتل قاتله كف ذلك الطائر [٣٧:ص٢٩٣، ٣٥:ص٤٦١]، يهدد الشاعر هنا عمرا بأنه إن لم يدع شتمه، فسوف يقتله، ويزيد من حسرته بأنه لن يجد من يثأر له، وستظل الهامة تستسقي دون مجيب.

٣. ٢. ٢. في الغدر:

لم تكن صفة أقبح عند العرب من الغدر، وإذا كانت الأمم الأخرى تنصب التماثيل لأبطالها، فإن التمثال عند العرب ينصب للرجل الغادر، فقد "كان الرجل في الجاهلية إذا غدر وأخفر الذمة جعل له تمثال من طين ونصب وقيل: ألا إن فلانا قد غدر فالعنوه " كما قال الشاعر:

فلنقتلن بخالد سرواتكم ولنجعلن لظالم تمثالا

"فالرجل اللعين هو هذا التمثال. هذا كلامه. فلينظر على هذا ما معنى البيت"، وهكذا تختلف العلامات والرموز من أمة لأخرى، والفيصل في هذا هو سياقها الاجتماعي، لأن الاقتصار على السياق اللغوي يضل عن المعنى، فهو ليس سوى مدخل للولوج إلى المعاني الضمنية.

٣. ٢. ٣. في الحب:

للعرب في الحب عادات كثيرة، منها شق الرداء والبرقع، وعقد الرتم، وعلاج الخدر، واختلاج العين، وغيرها، فشق الرداء والبرقع يديم الحب، حيث يشق لمحبوبته برقعها، وتشق له رداءه، وإلا فسد حبهما[٣٥:ص٤٠٧]، وهذا مفتاح مغاليق النصوص في كثير من الأبيات الشعرية، مثل أبيات سحيم عبد بني الحسحاس:

فكم قد شققنا مـــن رداء محبر ومن برقع عن طفلة غير عانس

إذا شق برد شق بالبرد برقع دواليـــك حتى كلنـــا غير لابس

في إشارة إلى مغامراته العاطفية الدائمة، على الرغم من كثرتها، مستدلا بشق البرقع والرداء، ولو اكتفينا بالمعاني الظاهرة فسنكون أمام رجل ومحبوباته الفتيات، يمزقون الأردية والبراقع، وهو يفتخر بكثرة هذا الأمر، والواقع أننا أمام نص غامض لا يسلم معانيه دون هذا السياق الثقافي.

ويعمد الرجل إذا همَّ بالسفر إلى عقد الرّتم، هو عقد نوع من النبات، فإن بقي معقودا عند عودته دلَّ على وفاء امرأته وعدم خيانتها له، وإن وجده محلولا دل على خيانتها، قال الشاعر ساخرا من هذا:

هل ينفعنك اليوم إن همّت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرّتم؟

وقال آخر:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

خانته لما رأت شيبا بمفرقه وغرَّه حلفها والعقد للرّتم [٣٤:ص١٢٥]

هكذا تغدو الاعتقادات الغريبة موضوعات للشعر القديم، كونها جزءا من ثقافة مجتمعه، ثم جزءا من أدوات التحليل الناجعة، وخاصة عند ائتلاف الزمن والثقافة، كما هو عصرنا الراهن.

ويربط العرب بين الخدر وذكر الحبيب، فإذا خدرت رجل الرجل، فذكر حبيبته، ذهب عنه الخدر، قال كثيرٌ[٣٤:ص١٢٥، ٣٨:ص٦٦]:

إذا مذلت رجلي دعوتك أشتفي بذكراك من مذل بها فيهون

وقالت امرأة من كلاب:

إذا خدرت رجلي ذكرت ابن مصعب فإن قلت: عبد الله أجلى فتورها

وقال الأقيشر:

وما خدرت رجلاي إلا ذكرتكم فيذهب عن رجليَّ ما تجدان

ويمتد أثر الحبيب على المحبوب عند العرب، فيربطون بين اختلاج العين ورؤية المحبوب، قال الشاعر:

إذا اختلجت عيني أقول لعلها فتاة بني عمرو بها العين تلمع

وقال آخر:

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وإن كان المزار بعيدا

ولغيره:

إذا اختلجت عيني أقول لعلها لرؤيتها تهتاج عيني وتطرف [٣٤:ص١٢٥]

وباستدعاء هذه العادة عند العرب، يزول الغموض في الربط بين هذه الحالات وأثر حضور الحبيب الذهني فيها.

٣. ٢. ٤. في الزواج:

كما كانت للعرب عادات في الحب، فقد كانت لهم عادات في الزواج، من أغربها أن المرأة إذا "عسر عليها خاطب النكاح نشرت جانبا من شعرها، وكحلت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنشور، وحجلت على إحدى رجليها، ويكون ذلك ليلا، وتقول: يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح، فيسهل أمرها وتتزوج عن قرب"[٣٩:ص٤٠٩]، وهذا يفسر قول الشاعر ساخرا من صاحبه:

أما ترى أمك تبغي بعلا قد نشرت من شعرها الأقلا
ولم توف مقلتيها كحلا ترفع رجلا وتحط رجـــــــلا
هذا وقد شاب بنوها أصلا وأصبح الأصغر منهم كهلا
خذ القطيع ثم سمهـــــا الذلا ضربا به تترك هذا الفعلا

ولنتصور ترجمة لهذه الأبيات إلى لغة أخرى، اعتمادا على السياق اللغوي وحدة، كيف ستنتقل المعاني التي أرادها الشاعر؟!

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

٣. ٢. ٥. في العلاج:

ولهم في العلاج اعتقادات وعادات، انعكست على الشعر، فأصبحت هذه العادات منطلقا لفهم كثير من الأبيات، منها ما يتصل بدماء الملوك وعلاج الحلا، وعلاج المقاليت وعلاج السليم، فدماء الملوك والأشراف تشفي من عضة الكلب الكلِب [٢٦:ص١١٦٢]، وهذا نجده في كثير من الأبيات، منها قول الشاعر مادحا:

همُ حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاؤوا
بناة مكارم وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء [٢٦:ص١١٦٢]

ومنها قول الكميت [٤٠:ص١٨٤]:

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفي من الكلب

ويزعمون أن من "من عضه ينبح نبيح الكلاب فينتظر به سبعة أيام، فإن بال هنات على خلقة الكلاب برأ، وإلا مات بزعمهم". ويقولون: "إنه لا دواء له أنجع من شرب دم ملك" [٢٦:ص١١٦٢]، وقيل: "إن الرّجل الكلب يعضّ إنسانا آخر، فيأتون رجلا شريفا، فيقطر لهم من دم إصبعه، فيسقون ذلك الكلب فيبرأ" [٤٠:ص١٨٤]، فانظر كيف بنيت المعاني على هذه المعتقدات والعادات الغريبة، وهذا يؤكد البعد الاجتماعي وعلاقته المتظافرة مع الفنون عموما والشعر على وجه الخصوص

ومن مذاهبهم في علاج الحلا، البثور تظهر في شفة الصبي، أن يحمِّلوه منخلا على رأسه، ويأمروه أن يسير بين البيوت وينادى: "الحلا الحلا، الطعام الطعام، فتلقى له النساء كسر الخبز وأقطاع التمر واللحم في المنخل، ثم يلقى ذلك للكلاب فتأكله فيبرأ من المرض" [٣٩:ص٤٠٧]، لذا قال الشاعر:

ألا حلأ في شفة مشقوقة فقد قضى منخلنا حقوقه

أما علاج المقاليت فيزعمون أن المرأة المقلات، أي التي لا يعيش لها ولد إذا وطئت قتيلا شريفا بقي أولادها، وفي ذلك يقول بشر بن أبى خازم:

تظلّ مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء مئزر" [٣٤:ص١٢٤]

ومنها علاج السليم، وهو الملسوع، بتعليق الحلي عليه، ويتركونها عليه سبعة أيام ويمنع من النوم؛ قال الجاحظ" [٤٠:ص٣٨١]: "وكانوا يرون أنّ تعليق الحلي، وخشخشة الخلاخيل على السّليم، ممّا لا يفيق ولا يبرأ إلّا به".

لذا يفهم المعنى في قول النابغة:

يسهّد في وقت العشاء سليمها لحلى النساء في يديه قعاقع

وفي قول الآخر:

أرقت فلم تطعم لي العين مهجعا وبتّ كما بات الــسليم مقرّعــا
كأني سليم ناله كلم حيـــــــة ترى حوله حلي النساء مرصعا" [٤٠:ص٣٨١]

ويعالج العرب العاشق بالسلوان، قال رؤبة:

لو أشرب السلوان ما شفيت ما بي غنى عنك وإن غنيت [٤١:ص١٦١]

وقال جرير:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

يا ليت ذا القلب لاقى من يعلله أو ساقيًا فسقاه اليوم سلوانا " [٤٢:ص١٦١]

"فالسلوان: ما يسليه، وكل ما سلى عن شيء فهو سلوان"، لكن المقصود هنا "حجر كانوا يطرحونه في الماء ثم يسقونه العاشق فيسلو" [٤٢:ص٤٠٩] ، قال الأصمعي: "هي خرزةٌ تحلّ بماءٍ ثم تسقى أصحاب الهوى؛ فزعموا أنه يسلو صاحب العشق بذلك" [٤١:ص١٧٠] . فهذا المعنى المراد في الأبيات السابقة.

3. الاعتقادات:

المجتمع العربي القديم، كغيره من المجتمعات، لا يخلو من الخرافات التي يؤمن بها عامة الناس، حتى تغدو معتقدات راسخة، فقد انتشر عندهم كثير من الخرافات، التي تجذرت في المجتمع، ولقيت قبولا من شريحة واسعة، وراح الناس يمارسون أنواعا من السلوكيات العجيبة التي أملتها هذه الخرافات، ومع أن هناك من يكفر بها، ويسخر ممن يمارسها، إلا أن ما يهما في هذا السياق أنها مفاتيح لإنتاج معاني النصوص وأدوات لتحليلها.

ومن هذه الممارسات التي اشتهرت عند العرب التعشير، وحبس البلايا، والتنجيس، وضرب الثيران لتشرب البقر، وكيّ الإبل السليمة لتبرأ الجربى، ومعتقدات حول النار، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره.

والتعشير عند العرب يحمي من الوباء، فإذا أراد رجل دخول بلدة انتشر فيها الوباء، عشَّر على أبوابها، فلا يصيبه الوباء، وصفة التعشير أن ينهق نهيق الحمار عند مدخل القرية، ويعلق كعب أرنب، فلا يصيبه وباء[٣٤:ص١٧٠، ٣٥: ٤٦٣] .

وقد احتل هذا المعتقد مساحة واسعة في الشعر العربي، على الرغم من كثرة رافضيه، لكننا في سبيل إنتاج المعنى لا نستغني عن توظيف هذه الخلفية المهمة، يقول الشاعر نافيا نفع التعشير، وأنه لا يغير في الواقع شيئا:

ولا ينفع التعشير أن حم واقع ولا زعزع يغني ولا كعب أرنب

ويقول الآخر معترضا على التعشير، وأنه لن يفعل مثل هذا الفعل:

لعمري إن عشرت من خيفة الردى نهاق حمير إنني لجزوع **[٣٥:ص٤٦٤]**

وهكذا ينتشر الإنكار على المعشِّرين، وما كان ليأخذ هذا الشيوع في الشعر لولا شيوعه في المجتمع، وكثرة من يؤمنون به، ويلجؤون إليه.

ومن اعتقاداتهم في الاستعداد للحشر أنهم يحبسون البلايا عند قبر الميت، أي يشدون "ناقته إلى قبره ويقبلون برأسها إلى ورائها ويغطون رأسها بويلة وهي البرذعة فإذا أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت معه في المعاد ليركبها" [٣٥:ص٤٦١] ، وإن ماتت فإنهم يحرقونها بعد موتها، أما من لا يعقل له فإنه يحشر ماشيا [٣٤:ص١٢١] ، قال أبو زبيد:

كالبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حر الخدود

وقال عويمر النبهاني [٣٩:ص٣٩٠] :

أبني لا تنس البلية إنها لأبيك يوم نشوره مركوب

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ومن عجيب اعتقاداتهم ما عرف بالتنجيس وهو أن يعلقوا **النجاسة على الرجل لتقيه الجنون، قال الشاعر:**

فلو أن عندي جارتين وراقيا وعلق أنجاسا علي المعلق

وقالت امرأة بعد موت ابتها وقد نجسته فلم ينفعه:

نجسته لا ينفع التنجيس والموت لا تفوته النفوس

فأنّى لنا فهم هذا المعنى، والغرض من التنجيس، والعلاقة بينه وبين الموت، دون استدعاء هذه العادات التي لا يوفِّيها النص وحده.

ويعتقد العرب أن الجن تركب الثيران، فتصد البقر عن الشرب؛ لذا يضربون الثور لتشرب البقر، يقول الجاحظ [٤٠:ص١٨]:"كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إما لكدر الماء، أو لقلة العطش، ضربوا الثور ليقتحم الماء؛ لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل، وكما تتبع أتن الوحش الحمار.

لذا يمكن تفسير أبيات الأعشى التالية استنادا إلى ذلك:

فإني وما كلفتموني وربكم لأعلم من أمسى أعق وأحوبا

لكالثور والجني يضرب ظهره وما ذنبه إن عافت الماء مشربا

وما ذنبه إن عافت الماء باقر وما إن تعاف الماء إلا ليضربا " [٤٠:ص١٩] .

فقد شبّه نفسه إذ حمَّلوه ذنب ما لم يفعل بالثور الذي يضرب إذا عافت البقر الشرب.

وقال نهشل بن حري:

أتترك عارض وبنو عدي وتغرم دارم وهم بـــــراء

كدأب الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء" [٤٠:ص١٩]

وقال أنس بن مدركة الخثعمي:

إني وقتلي سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر [٤٠:ص١٨]

وشبيه بهذا كيّهم الإبل السليمة لتبرأ الجربى، فقد "زعموا أن الإبل إذا أصابها العرّ فأخذوا الصحيح وكووه زال العرّ عن السقيم"، قال النابغة:

وكلفتني ذنب امرئ وتركته كذي العر يكوى غيره وهو راتع" [٣٩:ص١٨]

فهو يعترض على تحميله أخطاء غيره، ويرى ذلك أشبه بكي البعير السليم ليشفى البعير الأجرب، دون أن تمسه النار.

فهل يكفينا الوضع اللغوي وما تمدنا به معاجم اللغة لفهم هذا المعنى، من دون العودة إلى هذا الاعتقاد السائد عند العرب؟

ولدى العرب اعتقادات مرتبطة بالنار، وهي لديهم كثيرة، ذكر منها أبو هلال العسكري: "نار الاستمطار، ونار التحالف، ونار الأهبة للحرب، ونار الطرد، ونار الحرس، ونار السعالى، ونار الأسد، ونار القرى، ونار السليم، ونار العذاء، ونار الوسم" [٤٣:ص٣٥]، ويهمنا في هذا السياق نار الاستمطار، ونار القرى، ونار الطرد.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

أما نار الاستمطار، فقد "كانوا في الجاهلية الأولى إذا احتبس المطر جمعوا البقر وعقدوا في أذنابها وعراقيبها السلع والعشر، ويصعدون بها في الجبل الوعر، ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر"[٣٥: ص٤٦٦] ، قال الشاعر ساخرا من هذه العادة:

أجاعل أنت بيقورا مسلعة وسيلة منك بين الله والمطر

أما نار القرى "فتوقد ليلا ليراها الأضياف فيهتدوا إليه"[٣٥:ص٤٦٧]، وكلما كبرت وكانت في مكان بارز دلت على الكرم، وكلما صغرت دلت على البخل؛ لذا كان من أبشع الهجاء في الديوان العربي قول الأخطل هاجيا بني يربوع رهط جرير:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمّهم بولي على النار

فتمسك البول بخلا لا تجود به ولا تبول لهم إلا بمقـــــدار" [٤٤:ص١٧٣]

وقد عد "أهجى بيت قاله شاعر" [٤٥:ص١٧٥، ٤٦:ص١٠٢] ، فياله من وصف جمع مساوئ الأخلاق من بخل وسوء أدب وعقوق، لا تتضح شناعة الفعل إلا بمعرفة سمات هذا المجتمع الذي يُحلُّ صفة الكرم في مقدمة الصفات التي يفخر بها العربي، ويفخر بكل ما يتصل بها ومنها نار القرى، وشناعة صفة البخل التي جمع فيها البيتان السابقان "ضروباً من الهجاء: فنسبهم إلى البخل بوقود النار لئلا يهتدي بها الضيفان، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة، ورماهم بالبخل بالحطب، وأخبر عن قلتها وأن بولة تطفئها، وجعلها بولة عجوز، وهي أقل من بولة الشابة، ووصفهم بامتهان أمهم وابتذالها في مثل هذه الحال، يدل بذلك على العقوق والاستخفاف، وعلى أن لا خادم لهم، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء" [٤٦:ص١٧٥] .

وخصّوا نار الطرد بمن لا يرغبون في عودته، وزعموا أنها إذا أوقدت خلفه إذا مضى، فإنه لا يعود، قال الشاعر:

وجمّة أقوام حملت فلم تكن لتوقد نارا خلفهم للتندّم

"والجمة الجماعة يمشون في الدم والصلح" [٤٣:ص٣٥] ، ولنا أن نتصور قارئا لهذه الأبيات من ثقافة أخرى، أو من قارئ لا يعرف هذه العادات العربية المرتبطة بالنار ودورها في إبراز صفة من أهم الصفات عند العربي، وهي الكرم، فماذا عساه يفسر هذه الأبيات؟!

والخلاصة أن مقاربة النصوص الشعرية العربية تتطلب أدوات منها ما يتصل بالسياق اللغوي، وما يرتبط به من عادات، ومنها ما يتصل بالسياق الاجتماعي، وما يرتبط به أيضا من عادات ومعتقدات لا غنى عنها، وأن الاكتفاء بمنهج محايث يفقر هذه النصوص ويُعجز عن فك مغاليقها، التي فرضتها خصوصية هذه المجتمعات وما يحيطها من بيئة مادية وثقافية.

4. الخاتمة:

تناول هذا البحث السياق الاجتماعي محللا هذا المفهوم ومقاربا الشعر العربي القديم، فحلَّل في محوره الأول مفهوم السياق في التراث والحداثة، منطلقا من التراث العربي، مرورا باللسانيين وتحديدا من فردينان دي

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

سوسير وأتباعه، ليصل إلى مفهوم السياق عند المدرسة الاجتماعية، ومن تبعها ممن تبنّوا السياق الاجتماعي، مقتصرا على تحليل أبرز الملامح التي يستضيء بها البحث لمقاربة الشعر العربي القديم.

وقارب في محوره الثاني الشعر العربي القديم مستثمرا السياق الاجتماعي لإنتاج معانيه، معتمدا انتقائية تخدم البحث، ارتكزت على اختيار النماذج الشعرية المشتملة على الغريب من القيم والعادات والمعتقدات التي لا غنى عنها لإنتاج المعاني الخفية في هذه النماذج.

وقد توصل البحث إلى عدد من النتائج أبرزها:

1. لا يكفي السياق النصي لفك مغاليق النصوص التي تتمنع عن المحلل من دون تسييقها اجتماعيا، بالعودة إلى العصر الذي أنتجت فيه، ومعرفة ظروفه وقيمه وعاداته.
2. يزخر الشعر العربي القديم بالمعاني الخفية التي فرضها النسق العربي بغموضه وخصوصيته المتفردة.
3. الشعر مرآة عصره، مثلما أن العصر مرآة شعره؛ لذا يبدو من الضرورة بمكان، التنقيب عن مضمرات المجتمعات القديمة للتوسل بها لتحليل الشعر.

التوصيات:

1. استثمار النظريات الحديثة لدى الآخر؛ لمقاربة النصوص الشعرية القديمة، ولا سيما أن هذه النظريات نتاج تراكم معرفي، لعب العرب فيها دورا بارزا.
2. ضرورة قراءة الشعر وتحليله في سياقاته الزمنية والثقافية والاجتماعية، فهي منتجه وهي أداة من أدوات تحليله وفهمه.
3. تمتد الجهود اللغوية والنقدية في التراث العربي إلى الحقول العلمية المختلفة؛ لذا يصبح من الضرورة تكثيف الدراسات البينة لاستثمار هذه المنجزات.

CONFLICT OF IN TERESTS
There are no conflicts of interest

المراجع:

[1] Ogden, Charles K. And Richards, Ivor The Meaning of Meaning. 1st ed, New York, 1923.

[2] يوسف العايب، السياق الثقافي ودوره في إنتاج المعنى وتوجيه دلالة النص. الأثر،ع-١٠٩،(٢٠١٦م). ١٢٠، مسترجع من ٨٤٣٧٨٢http//:search.mandumah.com/Record/

[3] خديحة إبراهيمي، السياق وأثره في تأويلية الخطاب الشعري دراسة في معلقة "عمرو بن كلثوم". القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، ١(٢)، ٦٥-٨٠.(٢٠١٨م).

[4] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، (١٩٩٤م).

[5] ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشر، دار غريب، القاهرة، ط٢، (١٩٨٨م).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[6] ف. ر. بالمر، علم الدلالة– إطار جديد، ترجمة صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٩٥).

[7] أبو عمرو الجاحظ، البيان والتبيين،ج١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، (١٩٨٨).

[8] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، (١٤١٣ه).

[9] محمد ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٤، تقديم وتعليق مشهور بن حسن آل سلمان وأحمد عبد الله، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، (١٤٢٣ه).

[10] بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن،ج١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، (١٣٧٦ه).

[11] إبراهيم الشاطبي، الموافقات، ج٤، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، (١٤١٧ه).

[12] أحمد ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٩٨٠م).

[13] محمد ابن القيم، بدائع الفوائد، ج٤، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة ط١، (١٤٢٥ه).

[14] أبو الحسن علي الواحدي، أسباب النزول، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت،(١٤١١ه).

[15] Ferdinand de Saussure، Course in general linguistics. Translated ،with an introduction and notes by Wade Baskin ،(edition1). McGraw-Hill. 1966.

[16] ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة ثائر ذيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، (٢٠١٤م).

[17] Rman Jakobson, Closing statement Linguistics and Poetics, in Sebeok, T. A Style in Language, Cambridge, mass, MIT Press. 1960.

[18] ترنس هوكز، البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة مجيد الماشطة، بغداد، ط١، (١٩٩٦م).

[19] جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط٤، (١٩٨٥).

[20] مارك أنجينو،:"التناصية، بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، ضمن آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم، محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٩٨م).

[21] Julia Kristeva, Desire in language, A Semiotic Approach to Literature and Art, Edited by Leon S. Roudiez,Columbia University Press, New York, 1980. P.36.

[22] م.م لويس. اللغة في المجتمع، ترجمة تمام حسان وإبراهيم أنيس، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (١٩٥٩م).

[23] جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، ترجمة محمد زياد كبة، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، (١٤١٧هـ).

[24] إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمّان، ط٢، (٢٠٠٩م).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[25] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط٢، (١٩٨٣م).
[26] أبو علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج ١، تعليق غريد الشيخ، الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٣م).
[27] محمد عثمان علي، شروح حماسة أبي تمام، ج٢، دار الأوزاعي، بيروت، د. ت.
[28] عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، (١٤١٨ه).
[29] أحمد ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج، ٢، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٣م).
[30] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج١، دار السلام للنشر والتوزيع– الرياض، ط١، ٢٠١٢م.
[31] يوسف خليف، الصعاليك العرب في الجاهلية، دار المعارف، القاهرة، (١٩٥٩م).
[32] ابن قتيبة الدِّينَوري، عيون الأخبار، ج١، شرحه وضبطه يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٦ه).
[33] أبو الفرج الأصبهاني الأغاني، تحقيق إحسان عباس، وإبراهيم السعافين، وبكر عساف، ج٢١، دار صادر، بيروت، ط٣، (١٤٢٩ه).
[34] أحمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، (١٤٢٣ه).
[35] أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١، دار الفكر، دمشق، (١٩٨٧م).
[36] أسامة منقذ، المنازل والديار، ج١، تحقيق مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح، القاهرة، (١٩٩٢م).
[37] محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، (١٤١٧ه).
[38] الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج٢، تحقيق عمر الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، (١٤٢٠ه).
[39] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة،ج١٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٢، (١٩٦٧م).
[40] أبو عثمان عمر الجاحظ، الحيوان، ج٥، وضع حواشيه محمد السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، (١٤٢٤ه).
[41] أبو حيان علي التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٧، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت، (١٤٠٨ه).
[42] جَرير بن عطية، ديوان جرير، تحقيق نعمان طه، ج١، تحقيق نعمان طه، دار المعارف، القاهرة، (١٩٨٦م).
[43] أبو هلال العسكري، الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا، (١٤٠٨ه).
[44] محمد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٥م).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[45] ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج٢، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، (١٤٠١ه).

[46] محمد ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج، ٥، تحقيق إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر بيروت، (١٩٩٦م).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq